

المادة العلمية لقرر مدخل علوم القرآن الكريم ٦٠٢١٠٢

أولاً: التعريف بالقران العظيم فضائله – أسماؤه.

من فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه في الحياة يستهدي بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة، تقوده إلى الخير، وترشده إلى البر فحسب، بل بعث إليه بين فترة وأخرى رسولاً يحمل من الله كتاباً يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويبشر وينذر، لتقوم عليه الحجة: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}

وظلت الإنسانية - في تطورها ورفيها الفكري- والوحي يعاودها بما يناسبها ويحل مشكلاتها الوقتية في نطاق قوم كل رسول، حتى اكتمل نضجها، وأراد الله لرسالة محمد ﷺ - أن تشرق على الوجود، فبعثه على فترة من الرسل. ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة، وكتابه المنزل عليه، وهو القرآن الكريم، كما قال ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون منه، ويقولون: لولا هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين"

فالقرآن رسالة الله إلى الإنسانية كافة وقد تواترت النصوص الدالة على ذلك في الكتاب والسنة: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}. {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} ، "وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة" ، ولن يأتي بعده رسالة أخرى {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}.

فلا غرو من أن يأتي القرآن وافيًا بجميع مطالب الحياة الإنسانية على الأسس الأولى للأديان السماوية: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}

وتحدى رسول الله ﷺ - العرب بالقرآن، وقد نزل بلسانهم، وهم أرباب الفصاحة والبيان، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، فثبت له الإعجاز، وبإعجازه ثبتت الرسالة. وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، فمن أوصاف جبريل الذي نزل به: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، ومن أوصافه وأوصاف المنزل عليه: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ

كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ، وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ } ، { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ }، ولم تكن هذه الميزة لكتاب آخر من الكتب السابقة لأنها جاءت موقوتة بزمن خاص، وصدق الله إذ يقول: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }.

وتجاوزت رسالة القرآن الإنس إلى الجن: { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ }، والقرآن بتلك الخصائص يعالج المشكلات الإنسانية في شتى مرافق الحياة، الروحية والعقلية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجًا حكيماً، لأنه تنزيل الحكيم الحميد، ويضع لكل مشكلة بَلَسَمَهَا الشافي في أسس عامة، ترسم الإنسانية حُطاهَا، وتبني عليها في كل عصر ما يلائمها، فاكتمب بذلك صلاحيته لكل زمان ومكان، فهو دين الخلود.

والإنسانية المعذبة اليوم في ضميرها، المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها إلا القرآن: { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }

والمسلمون هم وحدهم الذين يحملون المشعل وسط دياجير النظم والمبادئ الأخرى، فحري بهم أن ينفضوا أيديهم من كل بهرج زائف، وأن يقودوا الإنسانية الحائرة بالقرآن الكريم حتى يأخذوا بيدها إلى شاطئ السلام. وكما كانت لهم الدولة بالقرآن في الماضي. فإنها كذلك لن تكون لهم إلا به في الحاضر.

تعريف القرآن

تعريفه لغة: "قرأ": تأتي بمعنى الجمع والضم، والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن في الأصل كالقراءة: مصدر قرأ قراءة وقرآنًا. قال تعالى: { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } . أي قراءته، فهو مصدر على وزن "فعلان" بالضم: كالغفران والشكران، تقول: قرأته قرءًا وقراءة وقرآنًا، بمعنى واحد.

وقد خص القرآن بالكتاب المنزل على محمد ﷺ - فصار له كالعلم الشخصي. ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن، وعلى كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن: { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا }.

تعريفه اصطلاحاً: يذكر العلماء تعريفاً له يُقَرَّبُ معناه ويميزه عن غيره، فيَعْرِفُونَهُ بأنه: "كلام الله، المنزل على محمد - ﷺ - المتعبد بتلاوته".

ف "الكلام" جنس في التعريف، يشمل كل كلام، وإضافته إلى "الله" يُخْرِجُ كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

و"المنزل" يُخْرِجُ كلام الله الذي استأثر به سبحانه: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ، {وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}.

وتقييد المنزل بكونه "على محمد، ﷺ" يُخْرِجُ ما أُنزِلَ على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و"المتعبد بتلاوته" يُخْرِجُ قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية -إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها- لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك.

أَسْمَاؤُهُ وَأَوْصَافُهُ:

وقد سماه الله بأسماء كثيرة:

منها "القرآن". {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

و"الكتاب". {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ}.

و"الفرقان". {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.

و"الذكر" .. {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}

و"التنزيل" .. {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ، إلى غير ذلك مما ورد في القرآن.

وقد غلب من أسمائه: "القرآن" و"الكتاب"، قال الدكتور محمد عبد الله دراز: «زُوعِي في تسميته "قرآناً" كونه متلوّاً بالألسن، كما زُوعِي في تسميته "كتاباً" كونه مدوّنّاً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه».

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا

جيلاً بعد جيل على هيئته التي وُضِعَ عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها. بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، إنجاً لوعده الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند.

وبين سر هذه التفرقة بأن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد، وأن هذا القرآن جيء به مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب ومهيماً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان سائراً مسيرها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يَسَّرَ له أسبابه - وهو الحكيم العليم - وهذا تعليل جيد.

ووصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك:

منها "نور" .. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا } .
و"هدى" و"شفاء" و"رحمة" و"موعظة" .. { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } .

و"مبارك" .. { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } .

و"مبين" .. { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ } .

و"بشرى" .. { مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } .

و"عزيز" .. { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ } .

و"مجيد" .. { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ } .

و"بشير" و"نذير" .. { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا } .

وكل تسمية أو وصف فهو باعتبار معنى من معاني القرآن.

الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي.

سبق تعريف القرآن، ولكي نعرف الفرق بينه وبين الحديث القدسي والحديث النبوي نعطي

التعريفين الآتيين:

الحديث في اللغة: ضد القديم، ويُطلق ويراد به كلام يُتحدث به ويُثقل ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه، وبهذا المعنى سُمِّي القرآن حديثًا: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}، وسُمِّي ما يُحدَّث به الإنسان في نومه: {وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}

والحديث في الاصطلاح: ما أُضيفَ إلى النبي - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. فالقول: كقوله، ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..".

والفعل: كالذي ثبت من تعليمه لأصحابه كيفية الصلاة ثم قال: "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي"، وما ثبت من كيفية حججه، وقد قال: "خذوا عني مناسككم".

والإقرار: كأن يُقَرَّ أمرًا عَلِمَهُ عن أحد الصحابة من قول أو فعل. سواء أكان ذلك في حضرته - ﷺ - أما في غيبته ثم بلغه، ومن أمثلته: "أكل الضب على مائدته، ﷺ"، "وما رُوي من أن رسول الله - ﷺ - بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، فلما رجعوا ذكروا ذلك له عليه الصلاة والسلام، فقال: سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي، ﷺ: "أخبروه أن الله يجبه".

والصفة: كما رُوي: "من أنه - ﷺ - كان دائم البشر، سهل الخلق، لَيِّن الجانب، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا صحَّابٍ ولا فحَّاشٍ ولا عَيَّابٍ...".

الحديث القدسي:

عرَّفنا معنى الحديث لغة، والقدسي: نسبة إلى القدس، وهي نسبة تدل على التعظيم، لأن مادة الكلمة دالة على التنزيه والتطهير في اللغة، فالتقديس: تنزيه الله تعالى، والتقديس: التطهير، وتقديس: تطهَّر، قال الله تعالى على لسان ملائكته: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}، أي نُطَهِّرُ أنفسنا لك.

والحديث القدسي في الاصطلاح: هو ما يضيفه النبي - ﷺ - إلى الله تعالى، أي إن النبي - ﷺ - يرويه على أنه من كلام الله، فالرسول راوٍ لكلام الله بلفظ من عنده، وإذا رواه أحد رواه عن رسول الله مُسْتَنَدًا إلى الله عز وجل، فيقول: "قال رسول الله - ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل....".

أو يقول: "قال رسول الله، ﷺ: قال الله تعالى - أو يقول الله تعالى...".

ومثال الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل: "يد الله ملامى لا يغيضها نفقة، سحَاء الليل والنهار...".

ومثال الثاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ - قال: يقول الله تعالى "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه...".

الفرق بين القرآن والحديث القدسي

هناك عدة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمها:

١- أن القرآن الكريم كلام الله أَوْحَى به إلى رسول الله بلفظه، وتحدى به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التحدي به قائمًا، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين. والحديث القدسي لم يقع به التحدي والإعجاز.

٢- والقرآن الكريم لا يُنسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى. والحديث القدسي - كما سبق - قد يُروى مضافًا إلى الله وتكون النسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، أو: يقول الله تعالى، وقد يُروى مضافًا إلى رسول الله ﷺ - وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنه عليه الصلاة والسلام هو المخبرُ به عن الله، فيقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه عز وجل.

٣- والقرآن الكريم جميعه منقول بالتواتر، فهو قطعي الثبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهي ظنية الثبوت. وقد يكون الحديث القدسي صحيحًا، وقد يكون حسنًا، وقد يكون ضعيفًا.

٤- والقرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنى، فهو وحي باللفظ والمعنى. والحديث القدسي معناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ - على الصحيح فهو وحي بالمعنى دون اللفظ، ولذا تجوز روايته بالمعنى عند جمهور المحدثين.

٥- والقرآن الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، فهو الذي تتعين القراءة به في الصلاة: {فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}، وقراءته عبادة يُثيب الله عليها بما جاء في الحديث: "من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم

حرف"، والحديث القدسي لا يجزئ في الصلاة، ويشيب الله على قراءته ثوابًا عامًا، فلا يصدق فيه الثواب الذي ورد ذكره في الحديث على قراءة القرآن، بكل حرف عشر حسنات.

ثانياً : التعريف بعلوم القرآن العظيم . نشأته . تطوره . أهميته . أهم المؤلفات فيه .

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدنها التقدم العلمي إلا رسوخًا في الإعجاز، أنزله الله على رسولنا مُحَمَّدٍ ﷺ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فكان صلوات الله وسلامه عليه يبلغه لصحابته - وهم عرب حُلُصٌ - فيفهمونه بسليقتهم، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألو رسول الله ﷺ عنها.

رَوَى الشَّيْخَانُ وَغَيْرُهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَا لَا يَظْلَمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: "إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ".
وكان رسول الله ﷺ يُفَسِّرُ لَهُمْ بَعْضَ الْآيَاتِ.

أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}، "أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي".
وحرص الصحابة على تلقي القرآن الكريم من رسول الله - ﷺ - وحفظه وفهمه، وكان ذلك شرفًا لهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "كَانَ الرَّجُلُ مَنَا إِذَا قَرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ جَدًّا فِينَا" أَي عَظْمًا.
وحرصوا كذلك على العمل به والوقوف عند أحكامه.

رُوِيَ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيِّ أَنَّهُ قَالَ: "حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، كَعِثْمَانَ بْنِ عَفَانَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ - ﷺ - عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَجَاوِزُوهَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا".

وَلَمْ يَأْذَنَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي كِتَابَةِ شَيْءٍ عِنْدَهُ سِوَى الْقُرْآنِ خَشْيَةَ أَنْ يَلْتَبَسَ الْقُرْآنَ بِغَيْرِهِ.

رَوَى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله -ﷺ- قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه، وحدّثوا عني ولا حرج، ومن كذّب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار".
ولئن كان رسول الله -ﷺ- قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث فإن ما يتصل بالقرآن ظل يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله -ﷺ- وفي خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

جاءت خلافة عثمان رضي الله عنه، واقتضت الدواعي -التي سنذكرها فيما بعد إلى جمع المسلمين على مصحف واحد، فتم ذلك، وسُمّي بالمصحف الإمام، وأُرسلت نسخ منه إلى الأمصار، وسُمّيَتْ كتابته بالرسم العثماني، نسبة إليه، ويُعتبر هذا بداية "لعلم رسم القرآن".
ثم كانت خلافة عليّ -رضي الله عنه- فوضع أبو الأسود الدؤلي بأمر منه قواعد النحو، صيانة لسلامة النطق، وضبطاً للقرآن الكريم، ويُعتبر هذا كذلك بداية لـ"علم إعراب القرآن".
استمر الصحابة يتناقلون معاني القرآن وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله -ﷺ- وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين.

ومن أشهر المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير.
وقد كثرت الرواية في التفسير عن: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وما رُوِيَ عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات، بتفسير غامضها، وتوضيح مجملها.

أما التابعون، فاشتهر منهم جماعة، أخذوا عن الصحابة، واجتهدوا في تفسير بعض الآيات. فاشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

واشتهر من تلاميذ أبيّ بن كعب بالمدينة: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومُجّد بن كعب القرظي.

واشتهر من تلاميذ عبد الله بن مسعود بالعراق: علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

قال ابن تيمية: "وأما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل: زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب"

والذي رُوِيَ عن هؤلاء جميعاً يتناول: علم التفسير، وعلم غريب القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم المكي والمدني، وعلم النسخ والمنسوخ، ولكن هذا كله ظل معتمداً على الرواية بالتلقين. جاء عصر التدوين في القرن الثاني، وبدأ تدوين الحديث بأبوابه المتنوعة، وشمل ذلك ما يتعلق بالتفسير، وجمع بعض العلماء ما رُوِيَ من تفسير للقرآن الكريم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة، أو عن التابعين.

واشتهر منهم: يزيد بن هارون السلمي المتوفى سنة ١١٧ هجرية، وشُعْبَةَ بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية، وسفيان بن عُيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية.

وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبوابه، ولم يصلنا من تفاسيرهم شيء مكتوب سوى مخطوطة تفسير عبد الرزاق بن همام. ثم نهج نهجهم بعد ذلك جماعة من العلماء وضعوا تفسيراً متكاملًا للقرآن وفق ترتيب آياته، واشتهر منهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هجرية.

وهكذا بدأ التفسير أولاً بالنقل عن طريق التلقي والرواية، ثم كان تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم دُوِّنَ على استقلال وانفراد، وتتابع التفسير بالمأثور، ثم التفسير بالرأي.

وبإزاء علم التفسير كان التأليف الموضوعي في موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغني المفسر عنها.

فألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية في الناسخ والمنسوخ، وفي القراءات.

وألف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية في مُشكَل القرآن.

وألف أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هجرية في إعجاز القرآن.

والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية في مجاز القرآن.

وابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هجرية في "أقسام القرآن".

وهذه المؤلفات يتناول كل مؤلف منها نوعاً من علوم القرآن وبحثاً من مباحثه المتصلة به.

وأما المؤلفات التي تحوي علوم القرآن فمن أقدمها ما جمعه ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية

في كتابه "فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن".

ثم جاء بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية وألف كتاباً وافياً سماه "البرهان في علوم

القرآن".

ثم ألف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور "الإتقان في علوم

القرآن".

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في عصر النهضة الحديثة أقل من العلوم الأخرى. فقد

اتجه المتصلون بحركة الفكر الإسلامي اتجاهًا سديدًا في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب

العصر، مثل كتاب "إعجاز القرآن" لمصطفى صادق الرافعي، و"النبأ العظيم" للدكتور محمد عبد

الله دراز. والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه "مناهل العرفان في علوم القرآن". هذه المباحث

جميعها هي التي تُعرف بعلوم القرآن، حتى صارت علمًا على العلم المعروف بهذا الاسم.

ثالثاً : نزول القرآن العظيم

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد ﷺ - هداية البشرية، فكان نزوله حدثاً جليلاً يؤذن بمكانته

لدى أهل السماء وأهل الأرض، فإنزاله الأول في ليلة القدر أشعر العالم العلوي من ملائكة الله

بشرف الأمة المحمدية التي أكرمها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس، وتنزيله الثاني مفرقًا على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله آثار الدهشة التي حملت القوم على الممارسة فيه، حتى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهية، فلم يكن الرسول -ﷺ- ليتلقى الرسالة العظمى جملة واحدة ويُقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلفٍ وعناد، فكان الوحي ينزل عليه تباعًا تثبيتًا لقلبه، وتسلياً له، وتدرجًا مع الأحداث والوقائع حتى أكمل الله الدين، وأتم النعمة.

نزول القرآن جملة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}، ويقول: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، ويقول: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} . ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث، فالليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، إنما يتعارض ظاهرها مع الواقع العملي في حياة رسول الله -ﷺ- حيث نزل القرآن عليه في ثلاث وعشرين سنة.. وللعلماء في هذا مذهباً أساسيان:

١- المذهب الأول: وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة وعليه جمهور العلماء: أن المراد بنزول القرآن في تلك الآيات الثلاث نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته، ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّمًا على رسولنا مُحَمَّد -ﷺ- في ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه، حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات: فعن ابن عباس قال: "بُعِثَ رسول الله -ﷺ- لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثم أُمرَ بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين".

وهذا المذهب هو الذي جاءت به الأخبار الصحيحة عن ابن عباس في عدة روايات: أ- عن ابن عباس قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر. ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة، ثم قرأ: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}. {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} .

ب- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "فُصِّلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوُضِعَ فِي بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَجَعَلَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى النَّبِيِّ، ﷺ".

ج- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله يُنزل على رسوله -ﷺ- بعضه في إثر بعض"
 د- وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم أنزل نُجُومًا".

٢- المذهب الثاني: وهو الذي رُوِيَ عن الشعبي: أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله -ﷺ- فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجًا مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله مُنَجَّمًا على رسول الله -ﷺ- لأن هذا هو الذي جاء به القرآن: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}، وجادل فيه المشركون الذين نُقِلَ إليهم نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا، وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}. ولا يظهر للبشر مزية لشهر رمضان وليلة القدر التي هي الليلة المباركة إلا إذا كان المراد بالآيات الثلاث نزول القرآن على رسول الله -ﷺ- وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى بغزوة بدر: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقد كانت غزوة بدر في رمضان. ويؤيد هذا ما عليه المحققون في حديث بدء الوحي، عن عائشة قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله -ﷺ- من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء فكان يأتي حِرَاءَ فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة -ﷺ- فتزوده لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو في غار حِرَاءَ. فجاءه الملكُ فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله، ﷺ: "فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني" فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ، فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني" فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ، فغطَّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} .. حتى بلغ: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} ". فإن المحققين من الشراح على أن الرسول -ﷺ- نُبئ أولاً بالرؤيا في شهر مولده شهر ربيع الأول، ثم كانت مدتها ستة أشهر، ثم أُوحى إليه بقظة في شهر رمضان بـ "اقرأ" وبهذا تتآزر النصوص على معني واحد.

٣- وهناك مذهب ثالث: يرى أن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر في كل ليلة منها ما يُقَدَّرُ الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى

السماء الدنيا لسنة كاملة ينزل بعد ذلك مُنَجَّمًا على رسول الله - ﷺ - في جميع السنة. وهذا المذهب اجتهد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

أما المذهب الثاني الذي رُوِيَ عن الشعبي فأدلته - مع صحتها والتسليم بها - لا تتعارض مع المذهب الأول الذي رُوِيَ عن ابن عباس. فيكون نزول القرآن جملة وابتداء نزوله مفرقًا في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي الليلة المباركة. فالراجح أن القرآن الكريم له تنزلان:

الأول: نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة من السماء الدنيا.

والثاني: نزوله من السماء الدنيا إلى الأرض مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

وقد نقل القرطبي عن مقاتل بن حيان حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ونفى ابن عباس التعارض بين الآيات الثلاث في نزول القرآن والواقع العملي في حياة الرسول - ﷺ - بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان: عن ابن عباس:.

"أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }، وقوله: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ }، وهذا أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رَسَلًا في الشهور والأيام".

وأشار بعض العلماء إلى حكمة ذلك في تعظيم شأن القرآن، وتشريف المنزّل عليه، قال السيوطي: "قيل: السر في إنزاله جملة إلى السماء تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قريناه إليهم لينزله عليهم. ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مُنَجَّمًا بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقًا، تشريفًا للمُنزّل عليه". وقال السخاوي في جمال القراء: "في نزوله إلى السماء جملة تكريم بني آدم وتعظيم شأنه عند الملائكة وتعريفهم عناية الله بهم، ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة أن تُشَيِّع سورة الأنعام، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل بإملائته على السَّفَرَةِ الكرام، وإنساخهم إياه، وتلاوتهم له".

٤- ومن العلماء من يرى أن القرآن نزل أولاً جملة إلى اللوح المحفوظ مستدلاً بقوله تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}. ثم نزل من اللوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة، ثم نزل مفرقاً، فهذه تنزيلات ثلاثة.

وهذا لا يتعارض مع ما سبق أن رجحناه، فالقرآن الكريم مثبت في اللوح المحفوظ شأن سائر المغيبات المثبتة فيه، والقرآن الكريم نزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا - كما روي عن ابن عباس- في ليلة القدر، والقرآن الكريم بدأ نزوله مُنْجَمًا - كما يرى الشعبي- على رسول الله - ﷺ - في الليلة المباركة ليلة القدر من شهر رمضان، إذ لا مانع يمنع من نزوله جملة، ومن ابتداء نزوله على رسول الله - ﷺ - مفرقاً في ليلة واحدة، وبهذا ينتفي التعارض بين الأقوال كلها إذا استثنينا المذهب الاجتهادي الثالث الذي لا دليل له.

نزول القرآن منجماً

يقول تعالى في التنزيل: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}. ويقول: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، ويقول: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. ويقول: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ}، ويقول: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}.

فهذه الآيات ناطقة بأن القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربية، وأن جبريل نزل به على قلب رسول الله - ﷺ - وأن هذا النزول غير النزول الأول إلى سماء الدنيا، فالمراد به نزوله مُنْجَمًا، ويدل التعبير بلفظ التنزيل دون الإنزال على أن المقصود النزول على سبيل التدرج والتنجيم، فإن علماء اللغة يُفَرِّقون بين الإنزال والتنزيل، فالتنزيل لما نزل مفرقاً، والإنزال أعم.

وقد نزل القرآن مُنْجَمًا في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة بمكة على الرأي الراجح، وعشر بالمدينة، وجاء التصريح بنزوله مفرقاً في قوله تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}، أي جعلنا نزوله مفرقاً كي تقرأه على الناس على مهل وتثبت، ونزلناه تنزيلاً بحسب الوقائع والأحداث.

أما الكتب السماوية الأخرى - كالتوراة والإنجيل والزيور - فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ

بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن مُنَجَّمًا، فمعنى قولهم: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} : هَلَّا أُنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وماله أنزل على التَّنَجِيمِ؟ ولم أنزل مفرقًا؟ ولم يرد الله عليهم بأن هذه سُنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}، بقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}، وكما رد عليهم في قولهم: {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا}، بقوله: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا}، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ}، بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن مُنَجَّمًا بقوله: {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} أي كذلك أنزل مفرقًا لحكمة هي: تقوية قلب رسول الله {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} أي قدرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينًا، فإن إنزاله مفرقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم وذلك من أعظم أسباب التثبيت.

والذي استقرئ من الأحاديث الصحيحة أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول عشر آيات في أول المؤمنين جملة، وصح نزول: {غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} وحدها وهي بعض آية.

الحكمة الإلهية في تنزيله مُنَجَّمًا وآثاره في الإنسانية .

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم مُنَجَّمًا من النصوص الواردة في ذلك. ونجملها فيما يأتي:

١- الحكمة الأولى: تثبيت فؤاد رسول الله، ﷺ.

لقد وجه رسول الله - ﷺ - دعوته إلى الناس، فوجد منهم نفورًا وقسوة، وتصدى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة، وجلبوا على العناد.

٢- الحكمة الثانية: التحدي والإعجاز.

فالمشركون تبادوا في غيهم، وبالغوا في عُتْوِهِمْ، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحد يمتحنون بها رسول الله - ﷺ - في نبوته، ويسوقون له من ذلك كل عجيب من باطلهم، كعلم الساعة:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} ، واستعجال العذاب: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} ، فيتنزل القرآن بما يبين وجه الحق لهم، وبما هو أوضح معنى في مؤدى أسئلتهم، كما قال تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، أي ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحق، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة التي هي مثل في البطلان.

وحيث عجبوا من نزول القرآن مُنَجَّمًا بَيَّنَّ اللهُ لَهُمُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ تَحَدَّثُوا بِهِ مَفْرَقًا مَعَ عَجْزِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمَثَلِهِ أَدْخَلَ فِي الْإِعْجَازِ، وَأَبْلَغَ فِي الْحِجَّةِ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ جُمْلَةً وَيُقَالُ لَهُمْ: جِئُوا بِمَثَلِهِ، وَلِهَذَا جَاءَتِ الْآيَةُ عَقِبَ اعْتِرَاضِهِمْ: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} أي لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جملة إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وبما هو أبين معنى في إعجازهم، وذلك بنزوله مفرقًا، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن: "فكان المشركون إذا أحدثوا شيئًا أحدث الله لهم جوابًا"

٣- الحكمة الثالثة: تيسير حفظه وفهمه.

لقد نزل القرآن الكريم على أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة، سجلها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة والتدوين حتى تكتب وتدوّن، ثم تحفظ وتفهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} ، {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} ، فما كان للأمة الأمية أن تحفظ القرآن كله بيسر لو نزل جملة واحدة، وأن تفهم معانيه وتتدبر آياته، فكان نزوله مفرقًا خير عون لها على حفظه في صدورهم وفهم آياته، كلما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصحابة، وتدبروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها، واستمر هذا منهجًا للتعليم في حياة التابعين، عن أبي نضرة قال: "كان أبو سعيد الخدري يعلمنا القرآن خمس آيات بالعادة، وخمس آيات بالعشي، ويخبر أن جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات"، وعن خالد بن دينار قال: "قال لنا أبو العالية: تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن النبي - ﷺ - كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا".

وعن عمر قال: "تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي -ﷺ- خمسًا خمسًا".

٤- الحكمة الرابعة: مسأيرة الحوادث والتدرج في التشريع.

فما كان الناس ليسلس قيادهم طفرة للدين الجديد لولا أن القرآن عاجلهم بحكمه، وأعطاهم من دوائه الناجع جرعات يستطون بها من الفساد والرذيلة، وكلما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يُجَلِّي لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى، ويضع لهم أصول التشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر فكان هذا طباً لقلوبهم.

ويوضح هذه الحكمة ما رُوي عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: "لا تشربوا الخمر" لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: "لا تنزوا" لقالوا: "لا ندع الزنا أبداً"

٥- الحكمة الخامسة: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد.

إن هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله -ﷺ- في أكثر من عشرين عامًا تنزل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النسيج، دقيق السبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسور، كأنه عقد فريد نظمت حباته بما لم يُعهد له مثيل في كلام البشر: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}. ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعددة، ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه التوافق والانسجام: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}.

فأحاديث رسول الله، ﷺ -وهي في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم- لا تنتظم حباتها في كتاب واحد سلس العبارة يأخذ بعضه برقاب بعض في وحدة وترابط يمثل ما عليه القرآن

الكريم أو ما يدانيه اتساقاً وانسجاماً. فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم: {قُلْ لئن اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}.

كيفية وحي جبريل به إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

معنى الوحي:

يقال: وحيت إليه وأوحيت: إذا كلمته بما تخفيه عن غيره، والوحي: الإشارة السريعة، وذلك
يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد، وبإشارة ببعض الجوارح.
والوحي مصدر، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين، هما: الخفاء والسرعة، ولذا قيل في
معناه: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجّه إليه بحيث يخفى على غيره، وهذا معنى المصدر،
ويُطلق ويُراد به الوحي، أي بمعنى اسم المفعول. والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ}.

٢- والإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}.

٣- والإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء والإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: {فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}.

٤- ووسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ
لِيُجَادِلُوكُمْ} ، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}.

٥- وما يُلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيُّ مَعَكُمْ فَتَسْبِّحُوا
الَّذِينَ آمَنُوا}.

ولغة القرآن الفاشية "أوحى" بالألف - ولم يستعمل مصدرها- وإنما جاء فيه مصدر الثلاثي:
{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}.

ووحي الله إلى أنبيائه قد عرّفوه شرعاً بأنه: كلام الله تعالى المنزّل على نبي من أنبيائه.

كيفية وحي الله إلى رسله.

يوحي الله إلى رسله بواسطة وبغير واسطة.

فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي وسيأتي بيانه.

والثاني: هو الذي لا واسطة فيه.

منه الرؤيا الصالحة في المنام: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بُدئ به - صلى الله عليه وسلم - الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح". وكان ذلك تهيئة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى ينزل عليه الوحي يقظة وليس في القرآن شيء من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة، خلافاً لمن ادعى نزول سورة "الكوثر" مناماً للحديث الوارد فيها، ففي صحيح مسلم عن أنس، رضي الله عنه: "بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: "نزلت عليّ آناً سورة"، فقرأ: {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}. فلعل الإغفاء هذه هي الحالة التي كانت تعتربه عند الوحي.

ومما يدل على أن الرؤية الصالحة للأنبياء في المنام وحي يجب اتباعه ما جاء في قصة إبراهيم من رؤيا ذبحه لولده إسماعيل: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمِرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}. ولو لم تكن هذه الرؤيا وحيًا يجب اتباعه لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده لولا أن من الله عليه بالفداء.

الرؤيا الصالحة ليست خاصة بالرسول، فهي باقية للمؤمنين، وإن لم تكن وحيًا، قال عليه الصلاة والسلام: "انقطع الوحي وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن".

والرؤيا الصالحة في المنام للأنبياء هي القسم الأول من أقسام التكليم الإلهي المذكور في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

ومنه الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة يقظة، وهو ثابت لموسى عليه السلام {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} ، {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} كما ثبت التكلم على الأصح لرسولنا - ﷺ - ليلة الإسراء والمعراج. وهذا النوع هو القسم الثاني المذكور في الآية: {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} وليس في القرآن شيء منه كذلك.

كيفية وحي الملك إلى الرسول:

وحي الله إلى أنبيائه إما أن يكون بغير واسطة، وهو ما ذكرناه آنفًا. وكان منه الرؤيا الصالحة في المنام، والكلام الإلهي من وراء حجاب يقظة، وإما أن يكون بواسطة ملك الوحي وهو الذي يعيننا في هذا الموضوع لأن القرآن الكريم نزل به.

ولا تخلو كيفية وحي الملك إلى الرسول من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: وهي أشد على الرسول، أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، والصوت القوي يثير عوامل الانتباه فتُهَيِّئُ النفس بكل قواها لقبول أثره، فإذا نزل الوحي بهذه الصورة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكية لتلقيه وحفظه وفهمه، وقد يكون هذا الصوت حفيف أجنحة الملائكة المشار إليه في الحديث: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان" وقد يكون صوت الملك نفسه في أول سماع الرسول له.

والحالة الثانية: أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه في صورة بشر، وهذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم والسماع، ويأنس رسول النبوة عند سماعه من رسول الوحي، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

وكلتا الحالتين مذكور فيما رُوِيَ عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : " يا رسول الله.. كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول" .

وروت عائشة رضي الله عنها ما كان يصيب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من شدة فقالت: "ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً".

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآية: { وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ

١- إِلَّا وَحِيًّا

٢- أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

٣- أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ }

أما النفث في الرُوع - أي القلب - فقد ذُكِرَ في قول الرسول، صلى الله عليه وسلم : "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب". والحديث لا يدل على أنه حالة مستقلة، فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملكُ في مثل الصلصلة وينفث في روعه، أو يتمثل له رجلاً وينفث في روعه، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم.

أول ما نزل وآخر ما نزل .

التعبير عن تلقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للقرآن بنزوله عليه يُشعر بقوة يلمسها المرء في تصور كل هبوط من أعلى. ذلك لعلو منزلة القرآن وعظمة تعاليمه التي حولت مجرى حياة البشرية وأحدثت فيها تغييراً ربط السماء بالأرض، ووصل الدنيا بالآخرة، ومعرفة تاريخ التشريع الإسلامي في مصدره الأول والأصيل - وهو القرآن - تعطي الدارس صورة عن التدرج في الأحكام ومناسبة كل حكم للحالة التي نزل فيها دون تعارض بين السابق واللاحق، وقد تناول هذا أول ما نزل

من القرآن على الإطلاق وآخر ما نزل على الإطلاق، كما تناول أول ما نزل وآخر ما نزل في كل تشريع من تعاليم الإسلام، كالأطعمة، والأشربة، والقتال... ونحو ذلك. وللعلماء في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وآخر ما نزل كذلك أقوال، نجملها ونُرجِّح بينها فيما يأتي:

أول ما نزل:

١- أصح الأقوال أن أول ما نزل هو قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: "ما أنا بقارئ"، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ"، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: "ما أنا بقارئ"، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} . حتى بلغ: {مَا لَمْ يَعْلَمْ} ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - ترجف بوادره". الحديث.

٢- وقيل إن أول ما نزل هو قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ} .. لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: {يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ} ، قلت: أو {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} ؟ قال: أحديثكم ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني جاورت بحراء فلما قضيت جواربي نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي. ثم نظرت إلى السماء فإذا هو -يعني جبريل- فأخذتني رجفة. فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني"، فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ قُمْ فَأَنْذِرْ} .

وأجيب عن حديث جابر بأن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبيّن جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ، فإن أول ما نزل منها صدرها، ويؤيد هذا ما في الصحيحين أيضاً عن أبي سلمة عن جابر قال: سمعت رسول الله - ﷺ - وهو يُحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه: "بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعت، فقلت: زملوني، فدثروني"، فأنزل الله: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ } . فهذا الحديث يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء - أو تكون "المدثر" أول سورة نزلت بعد فترة الوحي - وقد استخرج جابر ذلك باجتهاده فتقدّم عليه رواية عائشة، ويكون أول ما نزل من القرآن على الإطلاق: { اقرأ } وأول سورة نزلت كاملة، أو أول ما نزل بعد فترة الوحي: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ } .. أو أول ما نزل للرسالة: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ } .. وللنبوة { اقرأ } .

وقد ذكر الزركشي في "البرهان" حديث عائشة الذي نص على أن أول ما نزل: { قُرْأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } وحديث جابر الذي نص على أن أول ما نزل: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ، ثُمَّ فَأَنْذِرْ } ثم قال: "وجمع بعضهم بينهما بأن جابراً سمع النبي - ﷺ - يذكر قصة بدء الوحي، فسمع آخرها، ولم يسمع أولها، فتوهم أنها أول ما نزلت، وليس كذلك، نعم هي أول ما نزل بعد سورة { اقرأ } وفترة الوحي، لما ثبت في الصحيحين أيضاً عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - كان يحدّث عن فترة الوحي، قال في حديثه: "بينما أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثت منه فرقاً^(١)، فرجعت فقلت: زملوني زملوني"، فأنزل الله تبارك وتعالى: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ، ثُمَّ فَأَنْذِرْ } .

فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بحراء قبل هذه المرة، وأخبر في حديث عائشة أن نزول { اقرأ } كان في غار حراء، وهو أول وحي، ثم فتّر بعد ذلك، وأخبر في حديث جابر أن الوحي تتابع بعد نزول { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ } فعلم بذلك أن { اقرأ } أول ما نزل مطلقاً، وأن سورة

(١) يعني خوفاً.

المدثر بعده". وكذلك قال ابن حبان في صحيحه: لا تضاد بين الحديثين، بل أول ما نزل: {أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} بغار حراء، فلما رجع إلى خديجة - ﷺ - وصبت عليه الماء البارد، أنزل الله عليه في بيت خديجة: {يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ} .. فظهر أنه لما نزل عليه {أَقْرَأْ} رجع فتدثر، فأنزل عليه: {يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ} .

آخر ما نزل:

- ١- قيل: آخر ما نزل آية الربا، لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: "آخر آية نزلت آية الربا" والمراد بها قوله تعالى: {يَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} .
- ٢- وقيل: آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} . الآية، لما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير: "آخر شيء نزل من القرآن: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} ... الآية.
- ٣- وقيل: آخر ما نزل آية الدِّينِ، لما رُوِيَ عن سعيد بن المسيب: "أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدًا بالعرش آية الدِّينِ" والمراد بها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ} ... الآية.
- ويجمع بين الروايات الثلاث بأن هذه الآيات نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، آية الربا، فأية {وَاتَّقُوا يَوْمًا} فأية الدِّينِ، لأنها في قصة واحدة. فأخبر كل راوٍ عن بعض ما نزل بأنه آخر، وذلك صحيح، وبهذا لا يقع التنافر بينها.
- ٤- وقيل: آخر ما نزل آية الكلاله. فقد رَوَى الشيخان عن البراء بن عازب قال: آخر آية نزلت: {بَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} ... الآية، وحملت الآخريه هنا في قول البراء على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث.
- ٥- وقيل: آخر ما نزل آية: {وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} .. لما أخرجه البخاري وغيره عن ابن عباس قال: هذه الآية:

{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ} هي آخر ما نزل وما نسخها شيء. والتعبير بقوله: "وما نسخها شيء" يدل على أنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً.

٦- وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: "آخر سورة نزلت: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} ، وحمل ذلك على أن هذه السورة آخر ما نزل مُشعراً بوفاة النبي -ﷺ- كما فهم بعض الصحابة، أو أنها آخر ما نزل من السور.

وهذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي -ﷺ- وكل قال بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من الرسول، أو قال ذلك باعتبار آخر ما نزل في تشريع خاص، أو آخر سورة نزلت كاملة على النحو الذي خرجنا به كل قول منها.

فوائد هذا المبحث:

ولمعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فوائدها أهمها:

أ- بيان العناية التي حظي به القرآن الكريم صيانة له وضبطاً لآياته: فقد وعى الصحابة هذا الكتاب آية آية، فعرفوا متى نزلت؟ وأين نزلت؟ حيث كانوا يتلقون عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما ينزل عليه من القرآن تلقى المؤمنين لأصول دينهم، ومبعث إيمانهم، ومصدر عزهم ومجدهم، وكان من أثر ذلك سلامة القرآن من التغيير والتبديل: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.

ب- إدراك أسرار التشريع الإسلامي في تاريخ مصدره الأصيل: فإن آيات القرآن الكريم عاجلت النفس البشرية بهداية السماء. وأخذت الناس بالأساليب الحكيمة التي ترقى بنفوسهم في سلم الكمال، وتدرجت بهم في الأحكام التي يستقيم بها منهج حياتهم على الحق، وتتنظم شئون مجتمعهم على الطريق الأقوم.

ج- تمييز الناسخ من المنسوخ: فقد ترد الآيتان أو الآيات في موضوع واحد، ويختلف الحكم في إحداها عن الأخرى، فإذا عُرف ما نزل أولاً وما نزل آخرًا كان حكم ما نزل آخرًا ناسخًا لحكم ما نزل أولاً.

منزلة السنة من القرآن الكريم

● (١) شارحة و مبينة لما في القرآن

● (٢) مؤكدة

● (٣) زائدة

واليك تفصيلها :

(١) شارحة و مبينة لما في القرآن الكريم وتأتي على ثلاثة أحوال :

(أ) بيان للإجمال مثل (الصلاة لم يبين عددها و أوقاتها و أوقات النهي إلا السنة الحج فقد

قال عليه السلام " خذوا عني مناسككم " و جميع أركان الإسلام لم تبين كيفياتها إلا السنة).

(ب) تخصيص العموم مثل (يوصيكم الله في أولادكم) فهذه الآية عامة و قد خصصت السنة

ذلك بان جعلت الابن القاتل لا يرث (لا يرث القاتل عن المقتول شيئاً و جعلت أيضاً أبناء

الأنبياء لا يرثون (نحن معشر الأنبياء لا نرث و لا نورث ...) .. شارحة و مبينة لما في القرآن

شارحة و مبينة لما في القرآن الكريم

(ج) تقييد المطلق مثل (و السارق و السارقة فاقطعوا أيديهما ...) فهذه الآية مطلقة لأن

اليد تطلق على الصغير و الكبير و قد قيدتها السنة من الأيمان من مفصل الكف ..

(٢) مؤكدة : فكل ما في السنة تطبيق عملي لما في القرآن مثل (حد الخمر و حد الزنا)

فقد بينه القرآن و بينته السنة تأكيداً (و النبي صلى الله عليه و سلم كان خلقه القرآن) ..

(٣) زائدة : حيث أن هناك عبادات زائدة على ما في القرآن النبي صلى الله عليه و سلم

و عمل بها مثل (الجمع بين المرأة و عمتها و خالتها، والرهان في الحضر حيث انه لم يرد في

القران إلا الرهان في السفر، وتحريم أكل كل ذي ناب من السباع و كل ذي مخلب من الطيور، و

أكل الحمر الأهلية).

رابعاً: أسباب النزول :

فوائد معرفتها - تعدد السبب - صيغ أسباب النزول - عناية العلماء به . ما يُعتمد عليه في معرفة سبب النزول . تعريف سبب النزول . فوائد معرفة سبب النزول . العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . صيغة سبب النزول .

نزل القرآن ليهدي الإنسانية إلى المحجة الواضحة، ويرشدها إلى الطريق المستقيم، ويقيم لها أسس الحياة الفاضلة التي تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته، ويقرر أحوال الماضي، ووقائع الحاضر، وأخبار المستقبل.

وأكثر القرآن نزل ابتداء لهذه الأهداف العامة، ولكن الصحابة رضي الله عنهم في حياتهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد شاهدوا أحداث السيرة، وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه، فيتنزل القرآن لذلك الحادث، أو لهذا السؤال الطارئ، ومثل هذا يُعرف بأسباب النزول.

عناية العلماء به:

وقد اعتنى الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف، ومن أشهرهم: "علي بن المديني" شيخ البخاري، ثم "الواحدي"، في كتابه "أسباب النزول"، ثم شيخ الإسلام "ابن حجر"، الذي ألّف كتاباً في أسباب النزول اسمه العجاب، ثم "السيوطي"، الذي قال عن نفسه: "وقد ألّفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يُؤلّف مثله في هذا النوع، سمّيته "أبواب المنقول في أسباب النزول".

ما يُعتمد عليه في معرفة سبب النزول:

والعلماء يعتمدون في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو عن الصحابة، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحاً لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع، قال الواحدي: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلب" وهذا هو نهج علماء

السلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئاً في ذلك دون تثبت، قال "مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ": سألت "عبيدة" عن آية من القرآن فقال: اتق الله وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن، وهو يعني الصحابة، وإذا كان هذا هو قول "ابن سيرين" من أعلام علماء التابعين تحريماً للرواية، ودقة في النقل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة، ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما رُوِيَ من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول.

وأما قول التابعي في سبب النزول فإنه يقبل بشروط:

١. إذا كان صريحاً في سبب النزول .
٢. وصحت الرواية عن ذلك التابعي .
٣. وكان التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .
٤. واعتضد بمرسَلٍ آخر .

تعريف سبب النزول:

يُعرَّف سبب النزول بما يأتي: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

وعلى هذا فسبب النزول يكون قاصراً على أمرين:

أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذي رُوِيَ عن ابن عباس قال: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}.. خرج النبي -ﷺ- حتى صعد الصفا، فهتف: "يا صاحباه"، فاجتمعوا إليه، فقال: "أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي؟" قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تَبَّ لَكَ، إنما جمعنا لهذا؟ ثم قام، فنزلت هذه السورة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

أن يُسأل رسول الله -ﷺ- عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكي من ذلك، عن عائشة قالت: "تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه

وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله - ﷺ - وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وهو أوس بن الصامت".

ولا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً، فإن القرآن لم يكن نزوله وفقاً على الحوادث والوقائع، أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن ينزل ابتداءً، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة، قال "الجعبري": "نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال".

فوائد معرفة سبب النزول:

لمعرفة سبب النزول فوائد أهمها:

أ- بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالأمة.

ب- إذا كان لفظ ما نزل عامًّا وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تُقصر التخصيص على ما عدا صورته، ولا يصح إخراجها، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ظني، وهذا هو ما عليه الجمهور وقد يُمثَّل لهذا بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}. فإن هذه الآية نزلت في عائشة خاصة، أو فيها وفي سائر أزواج النبي - ﷺ -، وعن ابن عباس في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ} ... الآية: نزلت في عائشة خاصة"، وعن ابن عباس في هذه الآية أيضاً: "هذه في عائشة وأزواج النبي - ﷺ - ولم يجعل الله لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي - ﷺ - التوبة، ثم قرأ: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلَدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وعلى هذا فإن قبول توبة القاذف وإن كان مُحْصَصًا لعموم قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ}، لا يتناول بالتخصيص مَنْ قذف عائشة، أو قذف سائر أزواج النبي - ﷺ - فإن هذا لا توبة له، لأن دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي.

ج- ومعرفة سبب النزول خير سبيل لفهم معاني القرآن، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يُعرف سبب نزولها، قال الواحدي: "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها" وقال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن" وقال ابن تيمية: "معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب".

مثال ذلك: قول الله تعالى: {إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}، فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضي أن السعي فرض، لأن رفع الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكًا بالظاهر، وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير في فهمه ذلك بما ورد في سبب نزولها، فعن عائشة أن عروة قال لها: أرايت قول الله: {إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} فما أرى على أحد جُنَاحًا أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئس ما قلت يا بن أخي، إنها لو كانت على ما أولتها كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت، أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يُهْلُونَ لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان من أهلها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية، فأنزل الله: {إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} ... الآية. قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله - ﷺ - الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما".

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

ومعنى هذه القاعدة: أنه إذا نزلت آيات بسبب معين فهل يقتصر الحكم على من نزلت فيه، أو يعم حكمها جميع الناس؛ لأن لفظها عام.

ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللِّعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته: "فعن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي - ﷺ - بشريك بن سحماء. فقال النبي، ﷺ: "الْبَيْتَةُ وَإِلَّا حَدُّ فِي ظَهْرِكَ" فقال: يا رسول الله.. إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البَيْتَةَ؟ فجعل رسول الله - ﷺ - يقول: "الْبَيْتَةُ وَإِلَّا حَدُّ فِي ظَهْرِكَ" ، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولئنزلن الله ما يرى ظهري من الحد، ونزل جبريل فأنزل عليه: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ}... حتى بلغ: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.. فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام: {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ} غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر.

وهذا هو الرأي الراجح والأصح، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة، والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها. كنزول آية الظهار في أوس بن الصامت، أو سلمة بن صخر - على اختلاف الروايات في ذلك، والاحتجاج بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم، قال ابن تيمية: "قد يجيء هذا كثيراً ومن هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية الكلاله نزلت في جابر بن عبد الله، وأن قوله: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ}، نزلت في بني قريظة والنضير، ونظائر ذلك مما يذكر أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق".

صيغة سبب النزول:

صيغة سبب النزول إما أن تكون نصًّا صريحًا في السببية، وإما أن تكون محتملة.

فتكون نصًّا صريحًا في السببية:

١. إذا قال الراوي: "سبب نزول هذه الآية كذا".

٢. أو إذا أتى بفاء تعقيبية داخلية على مادة النزول بعد ذكر الحادثة أو السؤال، كما إذا قال: "حدث كذا" أو "سئل رسول الله - ﷺ - عن كذا فنزلت الآية" - فهاتان صيغتان صريحتان في السببية.

وتكون الصيغة محتملة للسببية ولما تضمنته الآية من الأحكام:

١. إذا قال الراوي: "نزلت هذه الآية في كذا" فذلك يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أنه داخل في معنى الآية.

٢. وكذلك إذا قال: "أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا" فإن الراوي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب - فهاتان صيغتان تحتملان السببية وغيرها كذلك.

مثال الصيغة الأولى ما رُوِيَ عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: "أُنزلت {نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ}.. الآية. في إتيان النساء في أدبارهن". يعني إتيان النساء في القبل من جهة الدبر.

ومثال الصيغة الثانية ما رُوِيَ عن عبد الله بن الزبير "أن الزبير خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع النبي - ﷺ - إلى رسول الله - ﷺ - في شراج من الحرة، وكانا يسقيان به كلاهما النخل، فقال الأنصاري، سرح الماء يمر، فأبى عليه، فقال رسول الله، ﷺ: "اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك" فغضب الأنصاري وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله - ﷺ - ثم قال: "اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك".

واستوعى رسول الله - ﷺ - للزبير حقه، وكان رسول الله - ﷺ - قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ رسول الله الأنصاري استرعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية إلا في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}، قال ابن تيمية: "قولهم: نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، وقد تنازع العلماء في قول الصحابي:

"نزلت هذه الآية في كذا"، هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أنزلت لأجله أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يُدخله في المسند، وغيره لا يدخله فيه، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند"، وقال الزركشي في البرهان: "قد عُرفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: "نزلت هذه الآية في كذا" فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع".

خامساً : المكّي والمدني :

تعريفهما - فوائدهم معرفتهما - مميزات كل منهما إجمالاً .

عناية العلماء به . الفرق بين المكّي والمدني . مميزات المكّي والمدني وضوابطهما وخصائصهما .

فوائد العلم بالمكّي والمدني .

عناية العلماء بالمكّي والمدني وأمثلة ذلك:

وقد عني العلماء بتحقيق المكّي والمدني عناية فائقة، فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة، لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب، وهو تحديد دقيق يعطي للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمي في علم المكّي والمدني، وهو شأن علمائنا في تناولهم لمباحث القرآن الأخرى.

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي في جميع مراحلها، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها، ويحدد مكانه، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها، أهو من قبيل المكّي أم من قبيل المدني؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية، أهو من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية في مكة أم من الموضوعات التي ارتكزت عليها الدعوة في المدينة؟

وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رجَّح بينها فجعل بعضها شبيهاً بما نزل في مكة، وبعضها شبيهاً بما نزل في المدينة.

وإذا كانت الآيات نزلت في مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها في مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك، فقالوا: ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة.

الفرق بين المكي والمدني:

للعلماء في الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية، كل رأي منها بُني على اعتبار خاص. الأول: اعتبار زمن النزول، فالمكي: ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة، فما نزل بعد الهجرة ولو بمكة، أو عرفة: مدني، كالذي نزل عام الفتح، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا}، فإنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}، وهذا الرأي أولى من الرأيين بعده لخصره واطراده. الثاني: اعتبار مكان النزول، فالمكي: ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية. والمدني: ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وُقُبَاء وِطْعَانَ.

ويترتب على هذا الرأي عدم ثنائية القسمة وحصرها، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة، فلا يسمى مكياً ولا مدنيّاً، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكياً.

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي: ما كان خطاباً لأهل مكة، والمدني: ما كان خطاباً لأهل المدينة.

وينبغي على هذا الرأي عند أصحابه أن ما في القرآن من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} مكّي، وما فيه من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} مدني.

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفْتَحْ بأحد الخطابين، وأن هذا الضابط لا يطرد، فسورة البقرة مدنية، وفيها: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } .. وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } ، وسورة النساء مدنية وأولها: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } وسورة الحج مكية، وفيها: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار والازدياد منها.

مميزات المكي والمدني:

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكي والمدني، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التي يتناولها. وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات.

ضوابط المكي ومميزاته الموضوعية:

- ١- كل سورة فيها سجدة فهي مكية.
- ٢- كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية.
- ٣- كل سورة فيها: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } وليس فيها: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فهي مكية، إلا سورة الحج ففي أواخرها: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا } .. ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك.

٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة.

٥- كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك.

ضوابط المدني ومميزاته الموضوعية:

- ١- كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.
- ٢- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية.
- ٣- كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية.

٤- بيان العبادات، والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والموارث، وفضيلة الجهاد، والصلوات الاجتماعية، والعلاقات الدولية في السلم والحرب، وقواعد الحكم، ومسائل التشريع.

٥- مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنّبهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم.

٦- الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٧- طول المقاطع والآيات في أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها.

فوائد العلم بالملكي والمدني:

وللعلم بالملكي والمدني فوائد أهمها:

أ- الاستعانة به في تفسير القرآن: فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيراً صحيحاً، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص.

السبب. ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يُميز بين الناسخ والمنسوخ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم.

ب- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالاً، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب الملكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويمتلك عليه لُبّه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويبدو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

ج- الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية..

فإن تتابع الوحي على رسول الله -ﷺ- ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما رُوِيَ عن أهل السير موافقاً له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

سادساً: جمع القرآن ومراحله:

جمع القرآن وترتيبه:

يُطلق جمع القرآن ويُراد به عند العلماء أحد معنيين:

المعنى الأولي: جمعه بمعنى حفظه، وجماع القرآن: حفظه، وهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى في خطابه لنبيه -ﷺ- وقد كان يحرك لسانه بالقرآن إذا نزل عليه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي حرصاً على أن يحفظه: { لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }، عن ابن عباس قال: "كان رسول الله -ﷺ- يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله: { لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } قال: يقول إن علينا أن نجمله في صدرك ثم نقرأه: { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ } يقول: إذا أنزلناه عليك: { فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } فاستمع له وأنصت { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } أن نبينه بلسانك. وفي لفظ: علينا أن نقرأه، فكان رسول الله -ﷺ- بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق -وفي لفظ: استمع- فإذا ذهب قرأه كما وعد الله.

المعنى الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته كله، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة، في صحيفة على حدة، أو مرتب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضم السور جميعاً وقد رُتّب إحداها بعد الأخرى.

١- "أ" جمع القرآن بمعنى حفظه على عهد النبي، ﷺ:

كان رسول الله -ﷺ- مولعاً بالوحي، يتزقن نزوله عليه بشوق، فيحفظه ويفهمه، مصداقاً لوعده الله: { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ }، فكان بذلك أول الحفّاظ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة،

شغفًا بأصل الدين ومصدر الرسالة، وقد نزل القرآن في بضع وعشرين سنة، فرمما نزلت الآية المفردة، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر، وكلما نزلت آية حُفِظت في الصدور، ووعتھا القلوب، والأمة العربية كانت بسجيتها قوية الذاكرة، تستعيز عن أميتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورھا.

وقد أورد البخاري في صحيحه بثلاث روايات سبعة من الحفَّاظ، هم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

١- عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "سمعتُ رسول الله - ﷺ - يقول: "خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبيِّ بن كعب"، وهؤلاء الأربعة: اثنان من المهاجرين هما: عبد الله بن مسعود وسالم، واثنان من الأنصار هما: معاذ وأبي.

٢- وعن قتادة قال: "سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله، ﷺ؟ فقال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، قلت: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي".

٣- وروي من طريق ثابت عن أنس كذلك قال: "مات النبي - ﷺ - ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد".

وأبو زيد المذكور في هذه الأحاديث جاء بيانه فيما نقله ابن حجر بإسناد على شرط البخاري عن أنس: أن أبا زيد الذي جمع القرآن اسمه: قيس بن السكن، قال: وكان رجلًا منا من بني عدي بن النجار أحد عمومي، ومات ولم يدع عقبًا ونحن ورثناه. وبين ابن حجر في ترجمة سعيد بن عبيد أنه من الحفَّاظ، وأنه كان يُلقَّب بالقارئ.

وذكر هؤلاء الحفَّاظ السبعة. أو الثمانية، لا يعني الحصر، فإن النصوص الواردة في كتب السير والسُّنن تدل على أن الصحابة كانوا يتنافسون في حفظ القرآن، ويحفظونه أزواجهم وأولادهم. ويقرءون به في صلواتهم بجوف الليل، حتى يُسمع لهم دوي كدوي النحل، وكان رسول الله -

ﷺ - يمر على بيوت الأنصار، ويستمع إلى ندى أصواتهم بالقراءة في بيوتهم، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله - ﷺ - قال له: "لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك؟ لقد أُعْطِيتَ مزمراً من مزامير داود".

وعن عبد الله بن عمرو قال: جمعْتُ القرآن، فقرأتُ به كل ليلة، فبلغ النبي - ﷺ - فقال: "اقرأ في شهر".

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله، ﷺ: "إني لأعرف رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار".

ومع حرص الصحابة على مدارسة القرآن واستظهاره فإن رسول الله - ﷺ - كان يشجعهم على ذلك، ويختار لهم مَنْ يعلمهم القرآن، عن عبادة بن الصامت قال: "كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي - ﷺ - إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يُسمَعُ لمسجد رسول الله - ﷺ - ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله - ﷺ - أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا"

فهذا الحصر للسبعة المذكورين من البخاري بالروايات الثلاث الأنفة الذكر محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم، وعرضوه على النبي - ﷺ - واتصلت بنا أسانيدهم، أما غيرهم من حفظة القرآن - وهم كثر - فلم يتوافر فيهم هذه الأمور كلها، لا سيما وأن الصحابة تفرقوا في الأمصار، وحفظ بعضهم عن بعض، ويكفي دليلاً على ذلك أن الذين قُتلوا في بئر معونة من الصحابة كان يُقال لهم القُرَّاء، وكانوا سبعين رجلاً كما في الصحيح، قال القرطبي: "قد قُتِلَ يوم اليمامة سبعون من القُرَّاء وقُتِلَ في عهد النبي - ﷺ - ببئر معونة مثل هذا العدد" وهذا هو ما فهمه العلماء وأولوا به الأحاديث الدالة على حصر الحُفَّاظ في السبعة المذكورين.

وذكر الحافظ الذهبي في "طبقات القُرَّاء" أن هذا العدد من القُرَّاء هم الذين عرضوه على النبي - ﷺ - واتصلت بنا أسانيدهم، وأما مَنْ جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب "القراءات" القُرَّاء من أصحاب النبي - ﷺ - فعَدَّ من المهاجرين:

الخلفاء الأربعة، وطلحة، وسعدًا، وابن مسعود، وحذيفة، وسالمًا، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة. ومن الأنصار: عبادة بن الصامت. ومعاذًا الذي يُكْتَى أبا حليلة، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وصرح بأن بعضهم إنما كملّه بعد النبي، ﷺ.

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن حفظة القرآن في عهد الرسول - ﷺ - كانوا جمعًا غفيرًا، فإن الاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأمة، قال ابن الجزري شيخ القراء في عصره: "إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة".

ب- جمع القرآن بمعنى كتابته على عهد الرسول، ﷺ:

اتخذ رسول الله - ﷺ - كتابًا للوحي من أجلاء الصحابة. كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، ويرشداهم إلى موضعها من سورتها، حتى تُظاَهر الكتابة في السطور، الجمع في الصدور. كما كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم، دون أن يأمرهم النبي - ﷺ - فيخطونه في العصب، واللِّخاف، والكرانيف، والرقاع، والأقتاب، وقطع الأديم، والأكتاف، عن زيد بن ثابت قال: "كنا عند رسول الله - ﷺ - نُؤَلِّف القرآن من الرقاع".

وهذا يدل على مدى المشقة التي كان يتحملها الصحابة في كتابة القرآن، حيث لم تتيسر لهم أدوات الكتابة إلا بهذه الوسائل، فأضافوا الكتابة إلى الحفظ.

وكان جبريل يعارض رسول الله - ﷺ - بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما: "كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله - ﷺ - حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة".

وكان الصحابة يعرضون على رسول الله - ﷺ - ما لديهم من القرآن حفظًا وكتابة كذلك.

ولم تكن هذه الكتابة في عهد النبي - ﷺ - مجتمعة في مصحف عام، بل عند هذا ما ليس عند ذلك، وقد نقل العلماء أن نفرًا منهم: علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود - قد جمعوا القرآن كله على عهد رسول الله - ﷺ - وذكر العلماء أن زيد بن ثابت كان عرضه متأخرًا عن الجميع.

وقبض رسول الله - ﷺ - والقرآن محفوظ في الصدور، ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرق الآيات والصور، أو مرتب الآيات فقط وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة، ولم يُجمع في مصحف عام، حيث كان الوحي ينزل تباعًا فيحفظه القراء، ويكتبه الكتبة، ولم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يتقرب نزول الوحي من حين لآخر، وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، وكتابة القرآن لم يكن ترتيبها بترتيب النزول بل تُكتب الآية بعد نزولها حيث يشير - ﷺ - إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا، ولو جُمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي، قال الزركشي: "وإنما لم يُكتب في عهد النبي - ﷺ - مصحف لثلاثي يُفضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته، ﷺ" وبهذا يُفسر ما روي عن زيد بن ثابت، قال: "قبض النبي - ﷺ - ولم يكن القرآن جُمع في شيء" أي لم يكن جُمع مرتب الآيات والصور في مصحف واحد، قال الخطابي: "إنما لم يجمع - ﷺ - القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته أهدم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعد الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر".

ويسمى هذا الجمع في عهد النبي، ﷺ: (الجمع الأول)، وقد كان بطريقتين كما سبق وبيننا:

أ- جمعه حفظًا. ب- وجمعه كتابة.

٢- جمع القرآن في عهد أبي بكر، رضي الله عنه:

قام أبو بكر بأمر الإسلام بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وواجهته أحداث جسام في ارتداد جمهرة العرب، فجهَّز الجيوش وأوفدها لحروب المرتدين، وكانت غزوة أهل اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة للهجرة تضم عددًا كبيرًا من الصحابة القراء، فاستشهد في هذه الغزوة سبعون قارئًا من الصحابة، فهال ذلك عمر بن الخطاب، ودخل على أبي بكر - رضي الله عنه - وأشار عليه بجمع القرآن وكتابته خشية الضياع، فإن القتل قد استحر يوم اليمامة بالقراء - ويخشى إن استحر بهم في المواطن الأخرى أن يضيع القرآن ويُنسَى، فنفر أبو بكر من هذه المقالة وكبر عليه أن يفعل ما لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وظل عمر يراوده حتى شرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت لمكانته في القراءة والكتابة والفهم والعقل، وشهوده العرضة الأخيرة، وقصَّ عليه قول عمر - فنفر زيد من ذلك كما نفر أبو بكر من قبل، وتراجعا حتى طابت نفس زيد للكتابة، وبدأ زيد بن ثابت في مهمته الشاقة معتمدًا على المحفوظ في صدور القراء، والمكتوب لدى الكتبة، وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر، حتى إذا توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة صارت بعده إلى عمر، وظلت عنده حتى مات - ثم كانت عند حفصة ابنته صدرًا من ولاية عثمان حتى طلبها عثمان من حفصة.

عن زيد بن ثابت قال: "أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أريد أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر - قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل مما أمري به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى

شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتتبع القرآن أجمعه من العسب والليخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر".

وقد راعى زيد بن ثابت نهاية الثبوت، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، وقوله في الحديث: "ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره" لا ينافي هذا، ولا يعني أنها ليست متواترة، وإنما المراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره، وكان زيد يحفظها، وكان كثير من الصحابة يحفظونها كذلك، لأن زيداً كان يعتمد على الحفظ والكتابة معاً، فكانت هذه الآية محفوظة عند كثير منهم، ويشهدون بأنها كُتبت، ولكنها لم توجد مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري.

أخرج ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: "قدم عمر فقال: مَنْ كان تلقى من رسول الله - ﷺ - شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان" وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة من الاحتياط، وأخرج ابن أبي داود أيضاً من طريق هشام بن عروة عن أبيه: أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمَنْ جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه" ورجاله ثقات مع انقطاعه، قال ابن حجر: "وكأن المراد بالشاهدين: الحفظ والكتاب" وقال السخاوي في "جمال القراء": "والمراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدي رسول الله - ﷺ - أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن" قال أبو شامة: "وكان غرضهم أن لا يُكتب إلا من عين ما كُتِبَ بين يدي النبي - ﷺ - لا من مجرد الحفظ، ولذلك قال في آخر سورة التوبة: "لم أجدها مع غيره" أي لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة".

وقد عرفنا أن القرآن كان مكتوبًا من قبل في عهد النبي -ﷺ- ولكنه كان مفرَّقًا في الرقاع والأكتاف والعصب. فأمر أبو بكر بجمعه في مصحف واحد مرتب الآيات والسور وأن تكون كتابته غاية من الثبوت مشتملة على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، فكان أبو بكر -ﷺ- أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف، وإن وُجِدَت مصاحف فردية عند بعض الصحابة، كمصحف علي، ومصحف أبي، ومصحف ابن مسعود، فإنها لم تكن على هذا النحو، ولم تنل حظها من التحري والدقة والجمع والترتيب، والاقتصار على ما لم تُنسخ تلاوته، والإجماع عليها، يمثل ما نال مصحف أبي بكر، فهذه الخصائص تميَّز بها جمع أبي بكر للقرآن، ويرى بعض العلماء أن تسمية القرآن بالمصحف نشأت منذ ذلك الحين في عهد أبي بكر بهذا الجمع، وعن علي قال: "أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله".

وهذا الجمع هو المسمى: (الجمع الثاني).

٣- جمع القرآن في عهد عثمان، ﷺ:

اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرَّق القراء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف، وقد يقنع بأنها جميعًا مسندة إلى رسول الله -ﷺ- ولكن هذا لا يحول دون تسرب الشك للناشئة التي لم تدرك الرسول، فيدور الكلام حول فصيحها وأفصحها، وذلك يؤدي إلى الملاحاة، ثم إلى اللجاج والتأنيب، وتلك فتنة لا بد لها من علاج.

فلما كانت غزوة "أرمينية" وغزوة "أذربيجان" من أهل العراق، كان فيمن غزاهما "حذيفة بن اليمان" فرأى اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة، وبعض ذلك مشوب باللحن، مع إلف كل لقراءته، ووقوفه عندها، ومماراته مخالفة لغيره، وتكفير بعضهم الآخر، حينئذ فرع إلى عثمان -ﷺ- وأخبره بما رأى، وكان عثمان قد نَمى إليه أن شيئًا من ذلك الخلاف يحدث لمن يُقرئون الصبية،

فينشأ هؤلاء وبينهم من الاختلاف ما بينهم، فأكبر الصحابة هذا الأمر مخافة أن ينجم عنه التحريف والتبديل، وأجمعوا أمرهم أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، ويجمعوا الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم أن ينسخوها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلف فيه زيد مع رهط القرشيين الثلاثة بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

عن أنس: "أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان، أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق، قال زيد: آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ - يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فألحقناها في سورتها في المصحف.

ودلت الآثار على أن الاختلاف في وجوه القراءة لم يفزع منه حذيفة بن اليمان وحده، بل شاركه غيره من الصحابة في ذلك، عن ابن جرير قال: "حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن علية، قال: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، قال: لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يُعَلِّم قراءة الرجل، والمعلم يُعَلِّم قراءة الرجل. فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين - قال أيوب: فلا أعلمه إلا قال - حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان. فقام

خطيبًا فقال: "أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون، فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافًا وأشد لحنًا، اجتمعوا يا أصحاب مُجَّد فاكتبوا للناس إمامًا" قال أبو قلابة: فحدثني أنس بن مالك قال: كنت فيمن يُملى عليهم، قال: فرما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله - ﷺ - ولعله أن يكون غائبًا في بعض البوادي، فيكتبون ما قبلها وما بعدها، ويدعون موضعها، حتى يجيء أو يرسل إليه، فلما فرغ من المصحف كتب عثمان إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي، فامحوا ما عندكم.

وأخرج ابن أشته من طريق أيوب عن أبي قلابة مثله، وذكر ابن حجر في الفتح أن ابن داود أخرجه في المصاحف من طريق أبي قلابة.

وعن سويد بن غفلة قال: "قال علي: لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل الذي فعل في المصحف إلا عن ملأ منا. قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ قد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا، قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يُجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنعَم ما رأيت".

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان قد أجمع عليه الصحابة، كُتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ليجتمع الناس على قراءة واحدة، ورد عثمان الصحف إلى حفصة، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف. واحتبس بالمدينة واحدًا هو مصحفه الذي يسمى الإمام. وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات السابقة من قوله: "اجتمعوا يا أصحاب مُجَّد فاكتبوا للناس إمامًا" وأمر أن يُحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف، وتلقت الأمة ذلك بالطاعة، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى، ولا ضير في ذلك. فإن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة، ولو أوجب رسول الله - ﷺ - على الأمة القراءة بها جميعًا لوجب نقل كل حرف منها نقلًا متواترًا تقوم به الحجة ولكنهم لم يفعلوا ذلك فدل هذا على أن القراءة بها من باب الرخصة. وأن الواجب هو تواتر النقل ببعض هذه الأحرف السبعة. وهذا هو ما كان.

قال ابن جرير فيما فعله عثمان: "وجمعهم على مصحف واحد، وحرف واحد، وخرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، وعزم على كل من كان عنده مصحف "مخالف" المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها، طاعة منها له، نظرًا منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها، حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها، فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها وعفو آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها، من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها، ولكن نظرًا منها لأنفسها ولسائر أهل دينها، فلا قراءة للمسلمين اليوم إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية.

فإن قال بعض من ضعفت معرفته: وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ - وأمرهم بقراءتها؟

قيل: إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض، وإنما كان أمر إباحة ورخصة، لأن القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة، عند من يقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءَةِ الأمة، وفي تركهم نقل ذلك كذلك أوضح الدليل على أنهم كانوا في القراءة بها مخيرين، بعد أن يكون في نقلة القرآن من الأمة من تجب بنقله الحجة ببعض تلك الأحرف السبعة. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقل جميع القراءات السبع، تاركين ما كان عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا، إذ كان الذي فعلوا من ذلك، كان هو النظر للإسلام وأهله، فكان القيام بفعل الواجب عليهم، بهم أولى من فعل ما لو فعلوه، كانوا إلى الجناية على الإسلام وأهله أقرب منهم إلى السلامة، من ذلك".

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

يتبين من النصوص أن جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفية:

١- **فالباعث** لدى أبي بكر -ﷺ- لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حين استحر القتل بالقرآن. **والباعث** لدى عثمان -ﷺ- كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطاً بعضهم بعضاً.

٢- وجمع أبي بكر للقرآن كان نقلاً لما كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب. وجمعاً له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور. مقتصرًا على ما لم تُنسخ تلاوته. مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.

وجمع عثمان للقرآن كان نسخًا له على حرف واحد من الحروف السبعة، حتى يجمع المسلمين على مصحف واحد. وحرف واحد يقرءون به دون ما عداه من الأحرف الستة الأخرى.

قال ابن التين وغيره: "الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان، أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف، مرتباً لآيات سورة على ما وقفهم عليه النبي -ﷺ- وجمع عثمان كان لما كثرت الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تحطئة بعضه، فخشى من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعاً للحرص والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة" وقال الحارث المحاسبي: "المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد، على اختيار وقع بينه وبين من شاهده من المهاجرين والأنصار، لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق".

وبهذا قطع عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحصّن القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان. وجمع عثمان للقرآن هو المسمى: (الجمع الثالث)، وكان سنة ٢٥ هجرية.

سابعاً : معنى التفسير

الفرق بينه وبين التأويل – أنواع التفسير – أشهر الكتب المؤلفة في كل نوع مع بيان منزلته العلمية.

معنى التفسير، نشأته، وأنواعه، وأهم المؤلفات فيه

سنلم في هذا الباب إمامه سريعة بتاريخ التفسير ، ونستعرض نشوءه أيام النبي صلى الله عليه وسلم ونموه في عهد الصحابة والتابعين ، ثم نتحدث عن توسعه فيما بعد ذلك حتى ننتهي في استعراضنا إلى العصر الحديث ، وسنقسم كلامنا حول تاريخ التفسير إلى أربعة فصول .

(الفصل الأول)

التفسير في عهد النبي ﷺ :

القرآن كتاب عربي مبين ، نزل على الرسول الكريم ﷺ ليبلغه قومه الفصحاء البلغاء ، فلم يستغلق فهمه بالإجمال على معظمهم ، إذا استثنينا ما تشابه منه.

فهمه العرب ، وكان سبباً في دخول عدد كبير منهم في الإسلام ، ولكن معاني القرآن لا تحد ولا يحاط بها ، ولما كان الرسول ﷺ أكثر الخلق فهماً لهذا الكتاب كان من مهماته الأساسية أن يبين للناس ما نزل إليهم .

والقرآن يحوي نظرة إلى الحياة و الإنسان جديدة على العرب ، ومن أجل ذلك فهم محتاجون إلى مزيد من الرشح و البيان لها حتى يقفوا عليها ، و يعوها حق الوعي ، لا سيما وأن في القرآن الجمل ، و العام ، والمشكل ، وفيه مفردات لا يفهما بعضهم ، فقد كان بعض الصحابة يكتفي بالمعنى الإجمالي لآيات القرآن ويؤخذ بسحرها وجمالها .

إذن فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتفاوتون في فهم القرآن تبعاً لما يأتي :
تبعاً لمواهبهم .

تبعاً لإطلاعهم على لغتهم وأدبها و لهجاتها .

تبعاً لمعرفة أسباب النزول .

وهكذا فإذن كثيراً من مواضع القرآن كانت تثير بعض الأسئلة عند بعض الصحابة فيوجهون بها إلى الرسول ﷺ في حياته . وكان يسأل بعضهم بعضاً عن معاني مفردات القرآن الغامضة والآيات بعد وفاته ﷺ .

(الفصل الثاني)

التفسير في عهد الصحابة :

كانت مادة التفسير في عهد الصحابة رضوان الله عليهم قائمة على ما يأتي من الأمور التالية :
تفسير القرآن بالقرآن .

ما كان يحفظه الصحابة من تفسيرات النبي ﷺ .

ما كانوا يستنبطونه من الآيات: وكان يعتمد ذلك على قوة فهمهم وإدراكهم.

ما كانوا يسمعونهم من أنباء أهل الكتاب الذين دخلوا في الإسلام.

أشهر الصحابة في التفسير :

عبد الله بن عباس .

عبد الله بن مسعود .

علي بن أبي طالب .

أبي بن كعب .

أبو بكر الصديق .

عمر بن الخطاب .

عثمان بن عفان .

زيد بن ثابت.

أبو موسى الأشعري.

عبد الله بن الزبير.

وأهم هؤلاء في التفسير الأربعة الأوائل ، وقد تم ترتيبهم حسب أهميتهم في التفسير وكثرة ممارستهم له ، فأوسع الصحابة اشتغالا بالتفسير هو عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما.

قيمة تفسير الصحابة :

نظر في التفسير المنقول عن الصحابة :

فإن كان مرفوعاً إلى النبي ﷺ فهو حديث ، له حكم الحديث أي يكون حجة إن صح سنده. وإن لم يكن مرفوعاً ننظر فيه فإن كان متعلقاً بأسباب النزول أو بما لا يكون من قبيل الرأي والاجتهاد أعطي حكم المرفوع وكان حجة إن صح سنده. أما إذا كان من قبيل الاجتهاد والاستنباط أو ليس متعلقاً بأسباب النزول كان موقوفاً على الصحابي .

ويتحصل من ذلك أن التفسير المروي عن الصحابي إن كان متعلقاً بأسباب النزول أو بما لا يمكن أن يكون من قبيل الرأي و الاجتهاد كان ملزماً ، وكذلك إن كان تفسيراً يعتمد على اللغة التي هم أدري الناس بها فهو ملزم أيضاً . أما الشيء الذي ليس داخلاً فيما ذكرناه فهو بشكل عام غير ملزم . وينظر إلى كل رأي على حدة.

(الفصل الثالث)

التفسير في عهد التابعين :

جاء التابعون فنقلوا روايات التفسير عن الصحابة ، وزادوا فيها ما استنبطوه بأنفسهم ، وما زال التفسير يتضحخ في عهدهم حتى اجتمع منه الشيء الكثير .

ولكن هذه الأقوال في التفسير لم تكن مجموعة ولا مرتبة بشكل منظم وفق ترتيب المصحف ، بل كانت تروى منثورة تفسيراً ص لآيات متفرقة بين روايات لا علاقة لها بالتفسير ، أي إن التفسير كان مختلطاً بالحديث غير مميز عنه.

وكان التابعون من أهل كل قطر يعنون برواية ما سمعوه وما ورد من التفسير عن الصحابي الذي يقيم في بلدهم. فاختص المكيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن عباس ، و اختص المدنيون برواية ما ورد من التفسير عن أبي بن كعب. واختص الكوفيون برواية ما ورد من التفسير عن ابن مسعود. وهذه المدارس الثلاث أهم مدارس التفسير في عهد التابعين.

قيمة التفسير التابعين:

اختلف العلماء في الأخذ بأقوال التابعين في التفسير ، فمنهم من ذهب على الأخذ بأقوالهم . ومنهم من لم ير ذلك.

يروى عن أبي حنيفة أنه قال : " ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس و العين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال " .

وهذا القول يدل على أننا غير ملزمين بأخذ أقوال التابعين فهم رجال ونحن رجال .

أما القول الذي يلزم بالأخذ بما ورد عن التابعين فهو موضع نظر .. نعم إذا اجمع التابعون على رأي فعندئذ يتوجب الأخذ به لأن إجماعهم يدل على وجود نص ملزم و الله أعلم .

(الفصل الرابع)

تاريخ التفسير فيما بعد التابعين :

هذا الفصل يتناول موضوع تاريخ التفسير خلال اثني عشر قرناً ، أي منذ منتصف القرن الثاني الهجري حتى العصر الحاضر ، وليس ذلك مما يتسع له وقت الدراسة ولا منهجها ، ومن أجل ذلك ، فسنتصر على ذكر خطوط عريضة في غاية الإيجاز.

إن تفسير القرآن الكريم لم يتوقف عند مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، ولن يتوقف كذلك ما دام هناك عقل يتفكر، وقلب يتذكر.

ويمكننا القول بداية - على ضوء ما تقدم في هذا الصدد - إن تفسير القرآن الكريم مر بمراحل بارزة، حاصل القول فيها كالآتي:

كان تفسير القرآن في بداية الأمر مقصوراً على التناقل عن طريق الرواية فحسب، إذ كان الصحابة رضوان الله عليهم يروون عن رسول الله ﷺ تفسيره لبعض الآيات والسور القرآنية... وكان التابعون كذلك يروون عن الصحابة ما كان عندهم من تفسير منقول عن رسول الله ﷺ، أو ما اجتهدوا في تفسيره... وواضح من هذا أن التفسير في هذه المرحلة كان يقوم على المشافهة والرواية فحسب .

ثم مع بدء مرحلة التدوين عمومًا - والتي يؤرّخ لها عادة مع بداية النصف الثاني من القرن الهجري الثاني - والبدء بتدوين الحديث خصوصًا، بدأ التفسير يدوّن ضمن كتب الحديث خاصة، إذ كان يُفرد له باب مستقل ضمن الأبواب التي تشتمل عليها المدونات الحديثة . ومع انتشار التدوين، واستقلال كثير من العلوم، أخذ تدوين التفسير يستقل شيئًا فشيئًا، فبرزت بعض التفاسير المدونة التي فسرت القرآن الكريم تفسيراً كاملاً، وبالسند فيما كان مسنداً. وليس من السهل في هذا السياق معرفة أول من دوّن تفسير القرآن كاملاً مرتباً...

وبعد مرحلة التدوين بالإسناد، جاءت مرحلة التدوين لكن مع اختصار الأسانيد، إذ اقتصر التدوين في التفسير على نقل الأقوال التفسيرية دون إسنادها إلى قائلها، الأمر الذي ترتب عليه ظهور ظاهري الوضع، والنقل عن الروايات الإسرائيلية، وربما كان لنا وقفة في مقال لاحق - حسب ما تيسر - على هاتين الظاهرتين .

وبعد تدوين كثير من العلوم وانتشارها؛ كعلم الكلام، وعلوم العربية، وعلم الفلسفة، بدأ التفسير ينحو منحاً جديداً، إذ دخل في مرحلة التفسير العقلي، التي بدأت بترجيح بعض الأقوال على

بعض، اعتمادًا على اللغة العربية، والسياقات القرآنية، واتخذ هذا المنحى من التفسير أشكالاً مختلفة ما بين مقبول ومرفوض .

لقد كان من ملامح هذه المرحلة تنوع التفاسير، وفُقِّ تنوع الاختصاصات العلمية؛ وهكذا وجدنا بعض التفاسير يغلب عليها الجانب اللغوي على غيره من الجوانب، وبعضها الآخر يغلب عليه الجانب الفلسفي، وقسم ثالث يطغى فيه الجانب الفقهي على ما سواه... وهكذا في باقي الاختصاصات .

وعلى الرغم من كل هذا التطور والتغير، لا يمكن القول إن التفسير بالمأثور لم يعد له وجود، بل إن الصحيح والواقع أن هذا التوسع في التفسير العقلي - إن صح التعبير - لم يبلغ التفسير بالمأثور، بل أصبح كل منهما موازيًا للآخر ومكملًا له .

وإضافة لما تقدم ذكره، كان من ملامح هذه المرحلة بدء الكتابة بعلوم القرآن كموضوعات مستقلة؛ كمجاز القرآن، ومفردات القرآن، والناسخ والمنسوخ في القرآن، وأسباب النزول، وأحكام القرآن، وما أشبه ذلك من موضوعات قرآنية، فصّلت كُتُب علوم القرآن القول فيها .

لكن يلاحظ أن سعة تلك الجهود التفسيرية دفعت من جاء بعدُ إلى العكوف على الاختصار أو التعليق أو تتبع جهود السابقين، وانحسرت جهود التأليف والإبداع، وترافق ذلك مع ما سمّي في التاريخ الإسلامي بمرحلة الانحطاط والتقليد والركون إلى جهود من سبق، وسادت مقولة: ليس بالإمكان أفضل مما كان !!

وبدخول عصر النهضة الحديثة، وصعود ما أُطلق عليه ظاهرة "الصحة الإسلامية" وما شهدته هذا العصر من تطورات على الأصعدة كافة، بدأت تظهر العديد من الجهود الإبداعية في مجال تفسير القرآن الكريم؛ فكان من ملامح هذه المرحلة ظهور التفسير الموضوعي للقرآن، أي تفسير القرآن الكريم حساب موضوعات معينة، كموضوع الأخلاق، وموضوع العلم، ما أشبه ذلك . وكان من ملامح هذه المرحلة كذلك ظهور التفسير العلمي للقرآن الكريم .

ولا ريب أن هذا التنوع والتعدد في الجهود المبذولة لتفسير القرآن الكريم أمر محمود ومشروع، ما دام مضبوطاً بضوابط الشرع وموجهاته؛ وهو في حد ذاته دليل على إعجاز هذا الكتاب، ودليل - من ثمَّ - على خلوده وتجدد عطائه بتجدد الفكر الذي يتعامل معه ويتوجه إليه .

(الباب الثالث)

اتجاهات التفسير

ظهرت اتجاهات متعددة في التفسير . وغرضنا في هذا الباب بحث أهم هذه الاتجاهات ودراسة خصائصها . وسنخص بالذكر و الدراسة في كل اتجاه كتاباً هاماً من كتب التفسير يمثل هذا الاتجاه.

والاتجاهات التي سنفرد لكل واحد منها باب فهي الاتجاه اللغوي . و التفسير بالأثر ، والتفسير بالرأي ، والتفسير العلمي ، و التفسير الإصلاحي ، و سنشير بعد ذلك في فصل واحد إلى اتجاهات أخرى مثل التفسير الموضوعي و الفقهي و الإشاري . وليس من شك في أن أهم هذه المدارس التفسيرية مدرستان قامتتا منذ وقت مبكر هما مدرسة التفسير بالمأثور ومدرسة التفسير بالرأي.

(الفصل الأول)

الاتجاه اللغوي في تفسير القرآن :

إن هذا الاتجاه من أقدم الاتجاهات التي وجدت في التفسير ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما يلي :

القسم الأول : ما يتعلق بمفردات اللغة هو ما عرف بغريب القرآن ، مثل كتاب (غريب القرآن) لأبن قتيبة.

القسم الثاني : ما يتعلق بالنحو و القضايا الإعرابية. مثل كتاب (معاني القرآن) للفراء وكتاب (البحر المحيط) لأبي حيان.

القسم الثالث : ما يتعلق بالبلاغة و الأساليب البيانية. مثل كتاب (الكشاف) للزمخشري ، و كتاب (في ظلال القرآن) لسيد قطب.
ولعل هذا الاتجاه بأقسامه هذه من أهم الاتجاهات التي تعني دارسي العربية في دراستهم للتفسير لاتصالها بدراستهم الاختصاصية.

(الفصل الثاني)

التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور اتجاه من أهم اتجاهات التفسير وأجدها بالعناية ، وهو أقدم هذه الاتجاهات. والمقصود به : أن تفسر الآية من آيات القرآن الكريم بما يلي :
بما جاء في القرآن نفسه في موضع آخر ورد فيه معنى هذه الآية .
وبما ورد عن النبي ﷺ من تفسير .
وبما نقل عن الصحابة والعدول من التابعين مما يتصل بشرح الآية .

هل تفسير الصحابة و التابعين من المأثور؟؟ :

اختلف العلماء في عد تفسير الصحابة والتابعين من المأثور ، فمنهم من عدّه مأثوراً ، ومنهم من لم يعدّه كذلك . غير أن معظم كتب التفسير بالمأثور تورد منه الكثير.
ولعل الرأي الصحيح هو أن ما جاء عن الصحابة و التابعين العدول فيما ليس من باب الاجتهاد
والاستنباط وإنما هو متوقف على السماع من النبي ﷺ يعد من التفسير بالمأثور ، وهو ملزم إن صح سنده.

وأما الأقوال المنقولة عنهم مما يتصل بالاجتهاد والاستنباط فليست من التفسير بالمأثور.

متى يقبل التفسير بالمأثور؟؟

إن التفسير بالمأثور - فيما عدا التفسير بالقرآن بطبيعة الحال - يقبل إن صح سنده هذا الأثر المفسر للآية ، ويلزمنا الأخذ به .

وأما إذا كان سنده واهياً فلا شك في رده . فإن علينا لنحكم على أثر بالقبول أو الرد أن ننظر في رجال سنده لنعرف درجته .

(الفصل الثالث)

التفسير بالرأي :

قام خلاف شديد بين العلماء في مسألة التفسير بالرأي فمنعه البعض و أجازته البعض أما المانعون فقد ذهبوا إلى حظره وتحريمه ، و استدلوا على ذلك بأدلة أهمها :

قالوا إن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم ، وهو غير جائز .

واستدلوا بالآية الكريمة " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم " وفهموا من الآية أن البيان للرسول ، وليس لغيره إلا أن ينقل قوله بعد تحري ما صح .

واستدلوا بالحديث : " اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم . فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار " .

واستدلوا بامتناع كثير من الصحابة و السلف من القول في تفسير القرآن ، كأبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن المسيب و الشعبي و الأصمعي .

وأما المجيزون فقد ناقشوا هذه الأدلة و بينوا أنها لا تنطبق عليهم كما يأتي :

قالوا ليس في التفسير بالاجتهاد قول على الله بغير علم . و إنما هو استخدام العقل في فهم كتاب الله العظيم واحتجوا بالحديث المشهور عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم معاذ عندنا بعثه ليمن فقال معاذ : اجتهد رأيي . فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره و قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله .

وأجابوا عن الاستدلال بالآية " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم " بأن في الذي ورد بيانه عنه صلى الله عليه وسلم كفاية عن كل تفسير ، وأما الذي لم يرد عنه صلى الله عليه وسلم بيانه ففيه مجال لأن يعمل أهل العلم الأكفاء تفكيرهم فيه ويقفوا على أسراره .

والقول الحق في هذه المسألة و الله أعلم أن التفسير بالرأي ضمن الحدود التي قررها العلماء من التمكن و القدرة و العلم يعتبر جائز ويجب قبوله و إقراره ، وهو الشيء الطبيعي الذي يقتضيه التفاعل مع كتاب الله عز و جل واستنطاقه في شؤوننا المعاصرة. و من أهم كتب التفسير بالرأي تفسير الرازي و تفسير النسفي و تفسير البيضاوي.

(الفصل الرابع)

التفسير العلمي

من مدارس التفسير التي شاعت في هذا العصر ما يدعى " التفسير العلمي " وللتفسير العلمي جذور في ثقافتنا التفسيرية القديمة ، ونستطيع أن نعد الغزالي في " الإحياء " و " جواهر القرآن " و " القسطاس المستقيم " و " الرازي في " مفاتيح الغيب " من أوائل الباحثين فيه وقد سار في هذا السبيل السيوطي حيث عقد باباً في " الإتيقان " تحدث فيه عن العلوم المستنبطة من القرآن. ولكننا في مطلع القرن الهجري الرابع عشر نرى هذا اللون من التفسير قد راج ونما ، وتوسعت أرجاؤه وتعددت ، وتخصص فيه بعض المؤلفين .

التفسير العلمي هو تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية ، و الربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية و الفلكية و الفلسفية. ومن أبرز من ألفوا في هذا المجال هو الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسيره .

والحق أن هذا الاتجاه من التفسير غير سديد ، وذلك لأن العلم في تغير مستمر وفي تبدل دائم فهو لا يثبت على حال على الإطلاق ، فقد تظهر حقيقة علمية اليوم يأتي من يبطلها ويثبت ضدها غدا ، فكيف يمكن لنا أن نحكم نظريات و فرضيات علمية غير ثابتة و غير مستقرة في كتاب الله عز و جل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، إن القرآن الكريم أكبر وأجل من كل تلك العلوم والنظريات والتجارب.

ثامناً: ترجمة معاني القرآن:

معنى الترجمة:

الترجمة تطلق على معينين:

أولهما: الترجمة الحرفية: وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الأخرى بحيث يكون النظم موافقاً للنظم، والترتيب موافقاً للترتيب.

ثانيهما: الترجمة التفسيرية أو المعنوية: وهي بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه.

والذين على بصير باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميع معناه. فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة. فالجملة الفعلية في اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل في الاستفهام وغيره، والمضاف مقدم على المضاف إليه، والموصوف مقدم على الصفة، إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلاً: كـ "لجين الماء"، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها: كـ "عظيم الأمل" وليس الشأن كذلك في سائر اللغات.

والتعبير العربي يحمل في طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى، فإن الألفاظ في الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلاً عن التراكيب.

والقرآن الكريم في قمة العربية فصاحة وبلاغة، وله من خواص التراكيب وأسرار الأساليب ولطائف المعاني، وسائر آيات إعجازه ما لا يستقل بأدائه لسان.

حكم الترجمة الحرفية:

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة في حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية. فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المعجز بألفاظه ومعانيه المتعبد بتلاوته، ولا يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله، فإن الله لم يتكلم إلا بما تتلوه بالعربية، ولن يتأتى الإعجاز

بالترجمة؛ لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية - والذي يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربي المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته.

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآنًا.

الترجمة المعنوية:

القرآن الكريم - وكذا كل كلام عربي بليغ - له معان أصليه، ومعان ثانوية. والمراد بالمعاني الأصلية المعاني التي يستوي في فهمها كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة وعرف وجوه تراكيبها معرفة إجمالية.

والمراد بالمعاني الثانوية خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام، وبها كان القرآن معجزًا. فالمعنى الأصلي لبعض الآيات قد يوافق فيه منشور كلام العرب أو منظومه، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن، فإن إعجازه ببديع نظمه وروعة بيانه، أي بالمعنى الثانوي. وإياه عني الزمخشري في كشفه بقوله: "إن في كلام العرب - خصوصًا القرآن - من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان".

حكم الترجمة المعنوية:

وترجمة معاني القرآن الثانوية أمر غير ميسور، إذ إنه لا توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب، وذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه. وهو ما يقصده الزمخشري من عبارته السابقة. فوجوه البلاغة القرآنية في اللفظ أو التركيب. تنكيرًا وتعريفًا، أو تقديمًا وتأخيرًا، أو ذكرًا وحذفًا، إلى غير ذلك مما تسامت به لغة القرآن، وكان له وقع في النفوس - هذه الوجوه في بلاغة القرآن لا يفني بحقها في أداء معناها لغة أخرى، لأي لغة لا تحمل تلك الخواص.

أما المعاني الأصلية فهي التي يمكن نقلها إلى لغة أخرى. وقد ذكر الشاطبي في الموافقات المعاني الأصلية والمعاني الثانوية ثم قال: "إن ترجمة القرآن على الوجه الأول - يعني النظر إلى معانيه

الأصلية- ممكن، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة ومن ليس لهم فهم يقوى على تحصيل معانيه. وكان ذلك جائزًا باتفاق أهل الإسلام، فصار هذا الإنفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي".

ومع هذا فإن ترجمة المعاني الأصلية لا تخلو من فساد، فإن اللفظ الواحد في القرآن قد يكون له معنيان أو معانٍ تحتملها الآية فيضع المترجم لفظًا يدل على معنى واحد حيث لا يجد لفظًا يشاكل اللفظ العربي في احتمال تلك المعاني المتعددة.

وقد يستعمل القرآن اللفظ في معنى مجازي فيأتي المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربي في معناه الحقيقي. ولهذا ونحوه وقعت أخطاء كثيرة فيما تُرجم لمعاني القرآن.

وما ذهب إليه الشاطبي واعتبره حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي ليس على إطلاقه. فإن بعض العلماء يخص هذا بمقدار الضرورة في إبلاغ الدعوة. بالتوحيد وأركان العبادات، ولا يتعرض لما سوى ذلك، ويؤمر من أراد الزيادة بتعلم اللسان العربي.

الترجمة التفسيرية:

ويحق لنا أن نقول: إن علماء الإسلام إذا قاموا بتفسير للقرآن، يتوخى فيه أداء المعنى القريب الميسور الراجح، ثم يترجم هذا التفسير بأمانة وبراعة، فإن هذا يقال فيه: "ترجمة تفسير القرآن" أو "ترجمة تفسيرية" بمعنى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى. ولا بأس بذلك. فإن الله تعالى بعث محمدًا - ﷺ - برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وُبعثت إلى الناس كافة"، وشرط لزوم الرسالة البلاغ - والقرآن الذي نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمة العربية ملزمًا لها، ولكن سائر الأمم التي لا تُحسن العربية، أو لا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها. وقد عرفنا قبل استحالة الترجمة الحرفية وحرمتها. واستحالة ترجمة المعاني الثانوية، ومشقة ترجمة المعاني الأصلية وما فيها من أخطار، فلم يبق إلا أن يترجم تفسير القرآن الذي يتضمن أسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصریح السنَّة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة. وترجمة تفسير للقرآن على نحو ما

ذكرنا يصح أن نسميها بالترجمة التفسيرية. وهي تختلف عن الترجمة المعنوية وإن كان الباحثون لا يفرقون بينهما، فإن الترجمة المعنوية توهم أن المترجم أخذ معاني القرآن من أطرافها ونقلها إلى اللغة الأجنبية، كما يقال في ترجمة غيره: ترجمة طبق الأصل. فالمفسر يتكلم بلهجة المبيّن لمعنى الكلام على حسب فهمه، فكأنه يقول للناس: هذا ما أفهمه من الآية، والمترجم يتكلم بلهجة من أحاط بمعنى الكلام وصبّه في ألفاظ لغة أخرى. وشتان بين الأمرين. فالمفسر يقول في تفسير الآية: يعني كذا، ويذكر فهمه الخاص. والمترجم يقول: معنى هذا الكلام هو عين معنى الآية، وقد عرفنا ما في ذلك.

وينبغي أن يؤكّد في الترجمة التفسيرية أنّها ترجمة لفهم شخصي خاص، لا تتضمن وجوه التأويل المحتملة لمعاني القرآن، وإنما تتضمن ما أدركه المفسر منها، وبهذا تكون ترجمة للعقيدة الإسلامية ومبادئ الشريعة كما تُفهم من القرآن.

وإذا كان إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام فإن ما يتوقف على هذا البلاغ من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها واجب كذلك. كما أن معرفتنا لهذه اللغات بالقدر الضروري تمكننا من دراسة كتبها للرد على المبشرين والمستشرقين الذين غمزوا عود الإسلام من بعيد أو قريب، وهذا هو ما عناه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "العقل والنقل" عندما قال: "وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك، وكانت المعاني صحيحة - كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه" ثم قال: "ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم، ويترجم بالعربية، كما أمر النبي - ﷺ - زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقراً له ويكتب له ذلك. حيث لم يأتمن اليهود عليه".

وإذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقي ولو للمعاني الأصلية لا تيسر في جميع آيات القرآن. وإنما المتيسر الترجمة على معنى التفسير، كان من الضروري إشعار القارئ بذلك، ومن وسائله كتابة

جمل في حواشي الصحائف يبيّن بها أن هذا أحد وجوه -أو أرجح وجوه- تحتملها الآية "ولو قامت جماعة ذات نيات صالحة وعقول راجحة. وتولت نقل تفسير القرآن إلى بعض اللغات الأجنبية، وهي على بينة من مقاصده - وعلى رسوخ في معرفة تلك اللغات، وتحامت الوجوه التي دخل منها الخلل في التراجم السائرة اليوم في أوروبا لفتحت لدعوة الحق سبيلاً كانت مقفلة. ونشرت الحنيفية السمحة في بلاد طافحة بالغواية قائمة"

والله أعلم وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.